البلاغة الجديدة منهجا وتفكيرا .

أ.د:العربي عمّيش

جامعة الشلف/ الجزائر.

ملخص البحث :

يتعرض التفكير البلاغي لفوضى المنهج ، فكون البلاغة فنا يشاكل الفنون الأخرى من رسم وتشكيل وتمثيل وتلوين فهو بذلك قائم في صميم تحقق نجاعته الإبداعية على ضرورة تمثل المقومات الواقعية التي أطلعته من حيز الحس والحياة إلى حيز العبارة والتجسد التشكيلي ، وهذا التلازم بين حركية الحياة وحركية الإبداع يُحتم على المبدع والبليغ المقوم للإبداع ضرورة الاحتكام إلى المنهج التطبيقي أو الوظيفي أو الميداني أو التجريبي وذلك الذي تحاماه بحث البلاغة الجديدة منهجا وتفكيرا.

La rhétorique pensé et méthode :

La rhétorique est un art qui façonne les autres arts du dessin, du modelage, de la représentation et de la coloration, et représente les éléments réels que j'ai apportés du domaine du sens de la vie au domaine des mots et de l'incarnation plastique. Les valeurs créatives et éloquentes de la créativité doivent recourir à l'approche appliquée, fonctionnelle, .expérimentale ou de terrain, protégée par la nouvelle rhétorique et la nouvelle approche

الكلمات المفتاحية :

البرمجة ، التنهيج ، البلاغة الجديدة ، حركية الحياة ، النجاعة ، الإبداع ، الجمالية ، الفنية ، الإيقاع .

نصّ البحث:

يأخذ مفهوم المنهج عدة وجهات معرفية وإجرائية ، وقد شاع من هذه المناهج السهل الكثير التداول ،وبقي المفيد من المنهج ضائعا لا يتحدد إلا في هوامش المقولات النقدية وظلالها ، فأصبح يُرَى إلى مفهوم المنهج طريقة معالجة لموضوع ما ، ليختزل الإجراء في جملة من أساليب المعالجة المنهجية لموضوع بحثيّ ما فكان المنهج الوصفي والمنهج التاريخي والمنهج المقارن ، وربما اضطرب كثير من الناس في هذا فداخلوا بين مناهج البحث ومناهج النقد الأدبي ، غير أننا في هذا البحث سنطرق سياقا بحثيا آخر نجمع فيه بين المنهجين المنهج البحثي والمنهج النقدي الأدبي معا لما وجدنا بينهما من الوشائج العملية والوظيفية ، والبلاغة الجديدة بما هي مختصة به من النشاط المعرفي القائم على تحيين المعارف ، والاستناد إلى الواقعية الاجتماعية والوظيفية في الإجراء فهي لهذه الأسباب كلها داعية إلى ضرورة تساند عالمها إلى المرجعية الاجتماعية والنفسية والبيئية ، لأن البلاغة بصدورها عن هذه الحوافز الحركية تكون قد أكسبت معارفها أو نظرياتها المصداقية الكاملة ، والبلاغة بين علوم اللغة العربية جميعها لم يستطع العقل تحديدها فهي إلى اليوم نزّاعة لتمثل المبادئ التي انبثقت عنها أول خطرة ، وهي بذلك الرسوخ ستظل لائقة بتسميتها فنّ البلاغة بدلا من مسماها علم البلاغة الذي لا يؤاتيها ولا يلائمها.

إن الذي يجعل بحث إشكالية المنهج في الدراسات اللغوية العربية الحديثة ذا حضور منهجي في سياق البحوث الوظيفية التي يحتاج إليها البلاغيّ ، وبالتحديد منهج الدرس البلاغي ، هو ارتباط التفكير اللغويّ الفنّي بعدة مؤثرات معرفية تحضر بمصداقية بحثية في صميم البحث اللغوي الجمالي نذكر منها ، المعرفة النقدية الأدبية ، وفلسفة الجمال ، والإيقاع ثمّ ما تفرزه الدراسات الترجمية الوافدة على المعارف اللغوية العربية الحديثة ، وكل هذه المعارف اللغوية المستعرضة موصولة بما لها من تناهيات معرفية أخرى كالتي نصادفها في النقد الأدبي الحديث المتخصص ، حيث تتلاقى المعارف اللغوية بالحقول النقدية الأدبية ، يأتي في مقدمتها الدرس البنيوي ، والدرس السيميائي ، والدرس الأسلوبي فهي تمت بصلة وطيدة إلى الدرس البلاغيّ .

إن أهم دافع محرض على بحث منهجية الدرس البلاغي هو رصد التحولات الطارئة على المبدأ البلاغيّ العربيّ ، فالذي يمعن النظر في أصول البلاغة العربية يستطيع أن يقف على حقيقة المنزع البلاغيّ ، حيث انبثق حرا ، متفاعلا مع مختلف المؤثرات ذات الوشيجة القوية مع طبيعة التفكير البلاغي، بحيث نستطيع أن نستخلص رؤية منهجية من طبيعة تلك المدونات البلاغية الأولية.

يقدّم لنا الجاحظ منهج المعرفة البلاغية ضمن منظورين ، منظور فكري ، أو فلسفي ، ومنظور جمالي حرّ ، والمنهجان الفلسفي والجمالي باديا التفاعل على المؤثرات النفسية والانفعالية والواقعية البيئية ، فالجاحظ يكون قد استثمر طبيعة تفاعله مع واقع الحياة العربية ليُطلع خصائص التفكير البلاغي ، وقد لخص أبو حيان التوحيدي المبادئ المطلعة لمنهج الجاحظ البلاغي بقوله:"...أن مذهب الجاحظ مدبّر بأشياء لا تلتقي عند كلّ إنسان ، ولا تجتمع في صدر كل أحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول ، والعادة والعمر ، والفراغ والعشق ، والمنافسة والبلوغ ، وهذه مفاتح قلما يمتلكها واحد ، وسواها مغالق قلما ينفكّ منها واحد"[1] ، والمنهج وفق هذا التقديم أو التشخيص مستمد من صميم الحياة ، فتأخذ في ضوئه كل المعارف اللغوية وخاصة منها البلاغية سياقها الوظيفي ، والمنهج الفكري في توصيف أبي حيان التوحيدي له لدى الجاحظ يأخذ بعدا سيريا ، لذلك فالمنهج في العلوم الإنسانية عليه أن يتأقلم مع طبيعة المعرفة أو الفكرة ، فالمنهج في العلوم الإنسانية متّصف بالمرونة والمطاوعة ، يستطيع بمرونته ومطاوعته أن يجاري التقلبات والتناقضات والانعكاسات التي تميز العلوم الإنسانية ، والذي يتدبر منهج الجاحظ في مؤلفاته جميعها يستطيع أن يلمس جملة من المساعدات المنهجية يتوسلها الجاحظ لبلوغ النظر الفني الجمالي ،وهو لذلك يغرف من حركية الواقع حسب توصيف أحد محاوريه حين قال:" ...وكأني بك وقد أصبحت حرّان حيران يا أبا حيان ، تأكل أصبعك أسفا ، وتزدرد ريقك لهفا ، على ما فاتك من الحَوْطة ، لنفسك ، والنظر في يومك لغدك ، والأخذ بالوثيقة في أمرك ، أتظنّنّ بغرارتك وغمارتك ، وذهابك في فسولتك التي اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدّين الأدنياء والأرذياء ..."[2]

يستمد البحث البلاغي مصداقيته البحثية مما يُطلعه من تفاعل الذات المبدعة مع ما يحيط بها سواء أكان هذا المحيط متحركا أم ثابتا ، فلطالما أملى إيقاع الطبيعة بكل روافدها الحسية الكثير من الوظائف الفنية الجمالية، والبلاغة بما هي محكومة به من الكيفيات المعرفية التي تتصيد دقائق الأمور ، أكثر ما تنجع في المستمليات الحسية التي ينطبع بها الخطاب الأدبي خاصة منه الشعريّ ، لذلك فإننا حين نستعرض المرتكزات الواقعية الواردة في المدونات البلاغية نجدها حاضرة حية المشهد في النظرية البلاغية ، وذلك ما يعني ضرورة ربط البلاغة بالواقع باعتبارها ضرورة منهجية موجهة للمعارف الواقعة في إطارها ، فالبديع حين يقدمه ابن المعتزّ لا يربطه بمرحلة زمنية معينة بل يجعله منفتحا على الاستزادة والتجدد والتجذر ، وفي خاصية التحول المطلق هذه ما يفيد شيئا من منهج المعرفة البلاغية ، فهي وفق هذا الاتصاف ليست مستقرة على كيفية ، وإنما تأخذ طابع الاستجابة ، وقد بادر ابن المعتزّ[3] إلى اقتراح كتاب البديع "... ليُعلم أنأن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفنّ ولكنه كثُر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سُمّيَ بهذا الاسم فأعرب عنه

، ودلّ عليه ..." ، لذلك فإن من بين المواضيع الحساسة في النظرية البلاغية العربية هو قيامها على تماهيات منهجية تبدو للوهلة الأولى جزئية غير مأبوه بها ، وذلك مثل اشتراط ابن المعتزّ كمية البديع كونها داخلة في صميم التقدير المعرفي لها ، فالبلاغة من مبادئها أن تحضر القيمة منها بكيفيات تقديرية قوامها ألا تنبني على الكثرة ، وتتزن بالندرة والقلة ، وقد سبق لبن سلام أن أشار إلى شيء من هذه القيمة المنهجية في مقدمة طبقاته حين تكلم على جمالية الزحاف أو المزاحفة فاشترط وقوع الزحاف على اعتدال دون الكثرة بالكيفية التوصيفية التي قال بها ابن المعتزّ حين منهج الاعتدال في توظيف البديع ، قال ابن سلام على منهج الاعتدال في توظيف الزحاف :" ... وكان يُستحسن ذلك منهم إذا جاء قليلا في البيت والبيتين ، فإذا توالى وكثُرَ في القصيدة سمُجَ..."[4]

وإن من أبرز الإحالات الدالة على الاختصاص المنهجي لدى الشعراء والأدباء ، والتي قاربت مناهجهم الإبداعية ما ذكره أبو حيان التوحيدي عن منهج الجاحظ أنه "... مدبّر بأشياء لا تلتقي عند كل إنسان ، ولا تجتمع في صدر كل أحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول ، والعادة والعمر ، والفراغ والعشق ، والمنافسة والبلوغ ، وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد ، وسواها مغالق قلما ينفكّ منها واحد"[5] ، ومثلما هو مواضح بيّن فإن المنهج المعرفي يستقي خصوصياته الإبداعية من الطبيعة الحياتية للأديب أو الشاعر ، فالكيفيات الإبداعية هي كيفيات حياتية لا تفرق هذه عن تلك ، تتناجزان معا لإطلاع الخصائص الإبداعية وتلك التي ارتآها أبو حيان التوحيدي في أدبية الجاحظ فوسمها بتلك الإحالات الحياتية التي تصطنع خصوصية أدبية الجاحظ.

امتاز بعض المدونات البلاغية بالتأليف الوجيز فما تعدى الورقات لشدة تركيز الفكر فيها ، فابن المعتزّ في كتاب البديع ، استطاع أن يختصر مقالة البلاغة بنظر منهجي تجنب فيه التطرق لكثير من العناوين الدرسية ، وسعيا منه لإصابة الغاية المنهجية في نظرية البلاغة العربية فقد قصر موضوعها على قليل من المعارف البلاغية من مثل: الاستعارة التي أعطاها قسطا وافرا من ورقاته ، ثمّ كان عززها بموضوع التشبيه باعتبارها قائمة عليه غير منفكّة عن إيقاعه ، ثم انتقل إلى الكلام على التجنيس والمطابقة ، وقد تحسّس ابن المعتزّ حاجة المدونة إلى توضيحات منهجية فضمنها قوله:"... وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ، ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختبارا من غير جهل بمحاسن الكلام ، ولا ضيق في المعرفة ، فمن أحبّ أن يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ، ولم يأت رأينا فله اختياره"[6].

تأخذ دلالة المنهج في المدونات البلاغية العربية القديمة عدة توصيفات أو مسميات تجتمع كلها على دلالة الاتساق المعرفي الذي ينتظم طبيعة تفكيرية معلمة بالاصطلاحات والتعريفات التي تأخذ طبيعة مشاكلة لخصائص الإبداع التي انبعثت عنه ، ونستطيع أن نلتقط من شهادة أبي حيان التوحيدي على طبيعة تفكير الجاحظ وأدبيته بعض الدلالات المنهجية منها قوله بالتدبير ومعناه السياقات الفكرية التي تطلع الفكرة ، وإن كلمة التدبير تعني شيئا من المعالجة والتخريج والتأويل والإعداد ، وأما قول أبي حيان التوحيدي بمذهب الجاحظ فقد عني به منهج الجاحظ ، وقد لاءم توصيف أبي حيان التوحيدي منهج الجاحظ البلاغي حقيقة منهج تفكير الجاحظ البلاغي ، لأن الجاحظ لم يشخص شيئا مما هو متداول في الدرس البلاغي التعليمي من مثل التشبيه والاستعارة والكناية وإنما ذهب الجاحظ في تشخيص تنهيج المعرفة البلاغية إلى الكلام في صميم فلسفة الفن والجمال ، فمقابل هذين القضيتين تكلم الجاحظ على البيان الذي إذا نحن تأملناه عميقا ألفيناها متماشيا مع نظرية البلاغة الإنسانية الجديدة حيث تتفاعل في ضوء معارفها كل الفنون النغم والشعر والبلاغة والإيقاع ، وقد يستوجب منا هذا الفهم الموضوعي إعادة النظر في برمجة المعرفة البلاغية ، وتكييفها بما يتماشى مع حقيقة المادة البلاغية.

لقد وُجدت البلاغة العربية إنسانية في مبادئها الحسية والانفعالية التي انبجس هاجسها عليها أوّل خطرة ، والبلاغة بإمساسها كثيرا من الغايات الانفعالية هداها ذلك الاتساق المعرفي لإصابة كل المستويات اللغوية فكانت بلاغة الصوت كما تجسدت في بعض المدونات البلاغية البيان والتبيين للجاحظ والبديع لابن المعتزّ ، والخصائص لابن جني مضافا إليه سرّ صناعة الإعراب ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ، وإذا كانت أربعة المدونات هذه قد تجاوزت بتعميق النظر الخوض في الدرس الكلي للبلاغة من حيث ركّزت نظرها على التفاعلات اللسانية السماعية الصانعة للأثر البلاغي ، فإنها بذلك قد ضمنت لها السيرورة والاستجداد ، لا يكاد المتأمل في مضامينها عزلها عما يقال في البلاغة الجديدة حديثا ، وإننا بذلك نجدها قد تضمنت علوما لغوية وأدبية هي مدار حديث الحداثة اليوم ، من مثل الإيقاع والموسيقى والأسلوبية وجمالية الصوت اللغوي وكلها مبثوثة في متون البلاغة العربية اناحية جهة التفكير الجمالي لا ينقصها شيء مما هو متداول في البلاغة الجديدة، وليس ينقص البلاغة العربية لتساير مستجدات التفكير الفني والجمالي سوى أن تحصين المنهج الذي بفضلها تلائم البلاغة الجديدة ، وتتماهى مع المنهاج النقدية الأدبية الحديثة.

يحتاج التفكير البلاغي العربي الحديث إلى مغادرة محدودية الدرس البلاغيّ ، فالبلاغة بتواجدها المحصور في عناوين تعليمية مقدرة في دروس التشبيه والاستعارة والكناية تكون قد انتهكت مواردها ، واختُزلها مناهجها حتى عادت معادية لاحتمال حركية الواقع ، وقد كان حريا بالبلاغة أن تستعيد نبض الواقع وحركيته فيها ، فتستفيد من مختلف الخبرات الحسية التي دون شكّ ستزوّدها بالطاقة الاستجدادية ، وتهبها منهج التجذر والترسخ في واقع الحياة المعيشة نفسا وبيئة واجتماعا واقتصادا.

الجانب المنهجي في توزيع المعارف البلاغية :

تنحو جميع المدونات البلاغية وجهة منهجية تكاد تكون واحدة ، خاصة المدونات التي نصنفها في صميم علم أصول اللغة العربية ، فالذي يعمق النظر في كتاب الخصائص لابن جني يستطيع أن يتبين مدى المماثلة التي يقوم عليها بينه وبين كتاب البيان والتبيين ، ولقد أصابت المؤلفات البلاغية الواقعة في صميم علم الأصول اللغوية المنهج الإبداعي في الاختصاص حين اتسقت أبوابها عير انشغالات بحثية ومعرفية تكاد تكون واحدة في جميع فهارسها ، سنعمد إلى تتبع بعض القضايا البلاغية الواردة في تلك المدونات وسنعمل على إبراز الوظيفة المنهجية من كل تدرج في ورودها مرتبة وفق الغايات المعرفية التي تلتقي في نهاية المطاف في نقطة واحدة هي إبراز خصائص المعارف البلاغية .

تتّسق البحوث البلاغية فيما بينها حين تتساند إلى المعطيات الواقعية ، وتختلف منهجا وتفكيرا عندما تعتمد التفكير المجرّد ، هذا الذي وقفنا عليه عند مطالعتنا لمؤلفين أحدهما عربي والآخر أجنبي المؤلف العربي هو كتاب البيان والتبيين والمؤلف الأجنبي كتاب مسائل فلسفية في فلسفة الفن المعاصرة ، كلا البلاغيين تساند إلى إفرازات الواقعين العربي والأوروبي حيث التقيا بعد وضوح إخلاصهما للمنزع الإنساني في استثمار حركية الحياة للتوصل إلى استنتاجات فنية جمالية ، بحيث يمكننا معاينة هذا الموضوع الذي سعينا خلاله إلى ربط التفكير البلاغي بالواقع الحياتي من خلال ثلاثة مواقف هي : تفسير ابن سلام الجمحي لجمالية الزحاف ، وسُكينة بنت الحسين في التطوع في المبالغات ، والجاحظ في تفسير جمال المنطق لاعم في الفكرة والمنهج بين المنطق

للإنسان والطيران للطائر ، وسنعمد إلى توضيح كل مسألة من المسائل الثلاث حتى يتضح المقصد من التوثيق بسرد مواضيعها على ضرورة ربط البلاغة بالواقع .

أما تطوع سكينة بنت الحسين في إزجاء البالغات دون تحفظ مادام الغرض من ذلك التطوّع والتبعيد ، فقد كشفت سُكينة بنت الحسين عن وجه النتها الحسناء لمرأة تطالعها في التشوف إليه قائلة : إنما ألبستها إياه لتفضحه[7] ، ومثل هذ الموقف كثير الجريان في البيئات العربية على اختلاف أزمانها وتفاوت مستوياتها الحضارية ، فالنساء معروف عنهن ميلهن إلى التنافس في الملبوسات والتباهي بما يضعن عليهن من الزينة ، غير أن سكينة بنت الحسين بعّدت وتطوعت في رسم حدود المبالغة حينما جعلت جمال اللابس يتفوق على زينة الملبوس ، فقلبت آية التشبيه التي هي إلحاق ناقص بتامّ ، وقد كان لهذا المنهج البلاغي الخارق وغير المتحفظ قد ظهر مبتدئا في الآية الكريمة ، إنها شجرة تطلع في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين .[8] ، حيث تساند هذا النزوع البلاغي القرآني إلى المنهج الاجتماعي الذي يعطي التفكير البلاغي مصداقيته ووظيفيته ، فالوثوق الذي توفره المرجعية الاجتماعية لمثل هذا النمط من التبعيد البلاغي المتطوع مستمد من المرجعية الاجتماعية المبرر لمثل هذا التوظيف ، وقد وثق الجاحظ المبررات المنهجية اللاحقة باعتبار بلاغة الآية بمبرر الإجماع الذي يعني الاجتماع ، " ... على أنه لو كان شيء أبلغ من الزجر من ذلك لذكره ..."[9]

ففي المقام البلاغي الذي انطبعت به سكينة بنت الحسين صدور واضح عن تطوع وقناعة اجتماعية توثقها أساليب النساء في بث التعجيبات عندما يتعلق الأمر بتوصيف الاعتبارات التفاضلية فيما بينهنّ ، والرواية في كتاب البديع قائلة :إن سكينة ارتجلت هذه المقولة الشعرية الشبيهة بتوقيع عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين قال: لسعني طائر ، حين صادفت في طريقها **سُعدة بنت عبد الله بن سالم** ين مكة والمدينة في وسط بيئي وظرف احتفاليّ حين أوقفت سعدة بنت عبد الله داعية إياها إلى الاستعداد لتلقي المفاجأة ثم سفرت عن وجه ابنتها وقد أثقلتها بالدرّ وقالت : ما ألبستها إياه إلا لتفضحه[10] ، فالقيمة البلاغية المستفادة من هذا المشهد الحياتي هي المنهج البلاغيّ ذاته ، فلم يتنزل هذا الفكر عن إعمال للعقل ، ولا قياس ولا تمثل لرأي آخر ، وإنما أتى هذا السياق البلاغي بناء على سياق حياتي وظيفي كل الشخوص ساهمت في إطلاع جدواه وفاعليته ، سكينة بنت الحسين ، ابنتها ، سعدة بنت عبد الله بن سالم ، مكان ما بين مكة والمدينة ، فالحيثيات هذه هي بمثابة المنهج البلاغي الذي ينبغي توافره في الاهتداء إلى البلاغة الجديدة .

وشبيه بهذا المنهج ما ذكره ابن سلام الجمحي في موضوع جماليات القصيدة حيث رأى إليه مماثلا للثغ والحول في الجارية "... قد يُشتهى منه القليل ..."[11] ، فاستُشفّ جمال الأدب من جمال الحياة ، فكان كالمنهج الهادي إلى إطلاع التفكير البلاغي ذي الوِجهة الجمالية ، لا ذاك الذي حددته المعايير الدرسية في شكل مواضيع تعليمية معلَّمَة المعارفِ محفوظتَها.

وأما المنهج الحياتي الذي أطلع بلاغة المشكالة بين سلامة الأسنان في جمال المنطق ، ووفرة الريش في جناح الطائر لاستواء طيران الطائر فقائم على قانون التسوية والتعديل الذي بنى عليه الجاحظ مبدأ هذا النظر ، وقالوا:"... الحمام المقصوص جناحاه جميعا أجدر أن يطير من الذي يكون جناحاه أحدهما وافرا والآخر مقصوصا ..."[12] ، فهذه الأمثلة الواقعية التي عرضناها نرى إليها في سياق هذا البحث يلتقي فيها التفكير البلاغي مع المنهج الاجتماعي أو البيئي أو النفسي الذي أوجدها من حيز الحياة إلى واقع الفكر .

المقدمات النفسية والاجتماعية المطْلعة للقيمة البلاغية:

أورد ابن سلام الجمحي في كتاب الطبقات كثيرا من الإشارات البلاغية الواقعة في صميم الممهدات المنهجية للنظرية البلاغية ،فالاستنبات الاجتماعي للتوقيعات البلاغية أتي بناء على حاجة الإنسان لتعاطي التوقيعات البلاغية ، وإن احتكام ابن سلام إلى المرجعيى الحسية يداخل بها التأثير البلاغي في النفس البشرية يأتي استجابة لبسط المبررات الحياتية الداعية إلى توظيف الإيقاع البلاغيّ ، وبما أن فنّ الشعر كان المستقطب ، والمتنهض الأولي للنزوع البلاغي في البيئة اللغوية العربية فقد قال ابن سلام: " ...وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يُعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره ,,,"[13] ، إن في إشارة ابن سلام لمختلف النشاطات الحياتية عبر ذكره صنوف المعايش التي أوردها دلالة على تناجز الفطنة البلاغية مع الخبرة والمهارة التي يوظفها البليغ أو الناقد أو الحكيم في التوصل إلى الوقوف على حقيقة قيمة الأشياء في الحياة ، خير دليل على أن البلاغة بكل تلوناتها المعرفية وهوامشها الجانبية نابعة من صميم الحياة ، فالبلاغة مستمدة قوانينها أو إيقاعاتها من معين حركية الحياة .

النسق المنهجيّ في مقررات برمجة البلاغة في الجامعة الجزائرية:

يعتور مناهج التعليم الجامعي في الجزائر التتخبط والعشوائية التي تمثل عائقا ثابتا يقف ضدّ تسهيل المعارف ، والأخذ بيد طلاب الجامعية الجزائرية في اختصاص الآداب والفنون واللغات لبلوغ أسباب الإبداع في التحصيل المعرفي ، ومما سجلناه في موضوع سوء برمجة المعارف اللغوية وبالتحديد العشوائية في برمجة المعارف البلاغية أن الطالب الجامعي في الاختصاص المذكور يصادف عناوين درسية لا تساعده على تفهّم حقيقة التفكير البلاغي العربي أو الإنساني ، فالمواضيع المسطّرة منذ التعليم الإعدادي أو الثانوي أو الجامعي في مراحل الليسانس والماستر والماجستير والدكتوراه كلها تتشابه متداخلة دون تحديد لتوزيع مستويات المعارف في الاختصاص ،وإن التكرير الممل الذي لا يفضي إلى استزادة في المعرفة يولد الكراهة والتبرم من المادة اللغوية ، فالدرس البلاغي بعد أن كان لوقت قريب محببا لقلوب الطلاب ، صار اليوم ملحقا بكراهة النحو العربي بعد أن تحجرت مناهج تعليمه ، وأساليب فهومه ، وتحجرت شواهده الشعرية حتى أميتت وصارت بلا جدوى.

يدرس طلاب المعرفة الجزائريون موضوع التشبيه في الدرس البلاغي في المؤسسات التعليمية فيلاقيهم في الإعدادي والثانوي والجامعي على اختلاف مستويات المعرفة فيتكرر شبيها بالكراسات القديمة المتآكلة ، تتكرر الفكرة ، وتلقى متحفظة ، وإن تدريسها غفلا وباردة خلوا من كل شرح وتيسير يجعلها في عيون الطلاب منفورا منها لا يبتغى تعلمها باعتبار معارفها الفنية الجمالية معادية لواقع الحياة التي يعيشها أولئك الطلاب ، وقد كان حريا بالمبرمجين أن يتمثلوا الأذواق الجديدة ، وتناسب مجريات الحياة مع تلك المواضيع البلاغية النابضة بحياة أخرى في حياتنا أن تصطنع لها البرمجيات والتنهيجات التي تجعلها محببة في قلوب مريديها .

وإن من سيئات التنهيج المعرفي في اختصاص البلاغة ان الموضوع الواحد يتكرر في جميع مستويات التعليم دون أن يصادف الطالب شيئا جديدا في المكرر يهزه إلى شغف الإقبال على استقبال البلاغة الجديدة ، مع ضرورة الانفتاح على الاطلاع على البلاغات الإنسانية ، وقد سبق الجاحظ إلى هذا المنهج منذ عصره فكيف نتأخر نحن اليوم بكل ما أوتينا من مسعفات التعليم عن هذا المستوى الإنساني في تلاقح المعارف الفنية والجمالية الواقعة في أطار الدرس البلاغي؟[14]

البلاغة بين الإبداعية والتعليمية:

إن من أخص ما تقوم عليه المعارف البلاغية تناهضها على الصلة الوطيدة بحركية الحياة ، يستقي منها النظر البلاغي كل مستلزمات إطلاع الفكرة البلاغية أو المنهج البلاغي حتى يبلغ ذلك التناغم الوظيفي بين المعرفة البلاغية وحركية الحياة القيمة المنهجية المسعفة في تعلم البلاغة ، وإن من أبرز الخصائص المنهجية في الدرس البلاغي أن يعاد النظر في تحديد سنّ تعليم الفن والبلاغة والإيقاع للناشئة ، فقد ورد في شهادة توثيقية أن البلاغة كانت تُدرَّسّ للصبيان لا للكبار ، فالفنون يتماشى تعليمها مع صغر السنّ ، فالطفل ذو استعداد جسماني ونفساني لتلقي المعارف الإمتاعية ، وقد نلاحظ اليوم شيئا من هذه الفائدة في المدارس الغربية خيث يتم تلقين الكثير من المعارف والفهوم للأطفال عن طريق أساليب اللعب المختلفة المناسبة التي وثقها الجاحظ في البيان والتبيين في موضوع منهج تعليم البلاغة لما ذكر صحيفة بشر بن المعتمر أن إبراهيم بن جبلة كان يعلم الصبيان البلاغة ، وقد استدرك بشر بن المعتمر بصحيفته على طريقة تعليم ابراهيم بن جبلة لما رآه بشر أنه يعطي معلومات تنقصها الموضوعية والمنهجية ، وذلك مما ينبغي الأخذ به في سياق بحث منهج تعليم البلاغة في الجامعات والمؤسسات التعليمية الأخرى[15]، والبلاغة مثلما تستنبت معارفها من صميم حركية الواقع فإن من اللازم أن توثق معارفها بالتساند إلى الحيثيات الاجتماعية والنفسية التي يفرزها واقع الحياة الواقعية وذلك الذي نعته عبد القاهر الجرجاني بالمعرفة البلاغية المفيدة [16].

[1] : أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، الجزء الأول ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان ، ص:66
[2] : أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، الجزء الأول ، ص:7
[3] : كتاب البديع ، ط:2، دار المسيرة ، 1979 ، ص:1
[4] : ابن سلام ، طبقات الشعراء ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ص:6
[5] : أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، الجزء الأول ، ص:66
[6] : ابن المعتزّ ، كتاب البديع ، ص:58
[7] : ينظر ، ابن المعتزّ ، كتاب البديع ،ط:2 دار االمسيرة ، 1979 ،ص: 67
[8]: الصافات ، آية:64،65
[9] : الجاحظ ، الحيوان ،المجلد الأول ، تحقيق: يحيى الشامي ،منشورات دار ومكتبة الهلال ، 1990 ،ص:427
[10] : ينظر ، ابن المعتز ، كتاب البديع ، ص:67
[11] : ابن سلام الجمحي ، طبقات الشعراء ، دار النهضة العربية بيروت لبنان ، ص:19
[12] : الجاحظ ، البيان والتبيين ، المجلد الأول ، ص:48
[13] : ابن سلام ، طبقات الشعراء ، دار المهضة العربية بيروت ، ص:1
[14] : اشار الجاحظ منذ عصره إلى مختلف الطقوس البلاغية لدى الأمم والألسنة الأخرى فكان له السبق المنهجي في الموضوع ، ينظر البيان والتبيين ، المجلد الأول ، ص:81
[15] : ينظر ، الجاحظ ، البيان والتبيين ، المجلد الأول ، ص:94، 95
[16] : ينظر ، عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، ص:34